أين الأقلام ؟

للأستاذ علي الطنطاوي

نحن اليوم في معركة مع الاستعمار ، قد اندلعت نارها ، وطار في كل أرض من أرض الإسلام شرارها ، فهل رأيت جيشاً في معركة يدع مدافعه فلا يطلقها ، وينسى دباباته فلا يسيّرها ، ويلقي بنادقه فلا يحملها ؟ هذا ما نفعله نحن حين نهمل أقلامنا فلا نسخرها في هذا النضال ، وإن من أمضى أسلحتنا وأنفذها وأبقاها على الزمان وأنبها للغير ، لهذه الأقلام ... فما لهذه الأقلام نائمة لا تفيق ، جامدة لا تتحرك ؟ وما لبعضها لا يزال يلهو ويلعب ، كأنه مدفع العيد يتفجر بالبارود الكاذب وسط المعمعة الدلهمّة التي تُجنّ فيها الموت ؟ !

* * *

إنها معركة الاستعمار : استعمار البلاد بالجيوش ، والأسواق بالشركات ، والرؤوس بالمذاهب ، والقلوب بالشهوات ، فجنود العدو تخطر على أرضنا ، وشركاته تتحكم في أسواقنا ، ومذاهبه الخبيثة تملأ رؤوسنا ، وتقليده في إباحته وشهوته وسفوره وحسوره ، وتكشفه في نسائه وفي أدبه يفسد قلوبنا ... فأين تلك الأقلام تنبه القوم النيام ، وتطهر الرؤوس والقلوب ، وتحمل نور الحق لتبدد به ظلمة الباطل ؟ !

أين تلك الأقلام تعرّف هذا الشعب بنفسه ، وتتلو عليه أمجاد أمسه ، وتذكره أنه لم يخلق ليذل ويخنع ، وإنما خلق ليعز ويحكم ، وأن الله ما برأه من طينة العبيد ، بل سوّاه من جِذْم الصيد الأماجيد ، وأنه أثبت من هؤلاء المستعمرين ... أصلا في الأرض ، وأعلى فرعاً في السماء ، وأكرم نفساً ، وأشرف عنصراً ، وأنقى جوهراً ، وإنها إذا أفقرت الأيام الغنيّ ، وأذلت العزيز ، فإن الفلك دوار ، والأيام دولاب ، فلا يغتر الفقير بالغنى الحادث ، ولا ييأسَ الغنيّ على اليسار الذاهب ، فإن كل شيء يعود إلى أصله ، وإن كل حال إلى زوال ... !

أين القوهرر الذي نطح النجم كبرياءً ؟ وأين الدوتشي ؟ فاعتبروا يا فهاررة اليوم ... فما أنتم بأمنع من الموت ، وما أنتم بأعصى على القدر ، وإن لهذا الكون دياناً جباراً ما شاركه أحد كبرياءه إلا قصمه ... وما أنتم حتى تشاركوا الجبار كبرياءه ؟ ! ا

* * *

وأين تلك الأقلام تفهم الشعب أن المستعمرين ما زهدوه في قرآنه ، وصرفوه عن دينه ، وشغلوه عن تاريخه ، إلا ليسلبوه أحدَّ أسلحته ، ويجردوه من أمتن أدراعه ، حتى إذا قابلوه أعزل عارياً ، هان عليهم اصطياده ، وسهل استعباده ، فكان إليهم قياده! وإنه آن لنا أن ننتبه لمكرهم بنا ، وأن نفيق من غفلتنا ، ولا نمشي إلى الهوان بأرجلنا ، ونمكن عدونا منا بملكنا ... !

وأين تلك الأقلام تعلن للناس أن هذه القوانين الأجنبية في محاكمنا ، إنما هي أثر من آثار الاستعمار الذي نحاربه ، وأن لنا شرعاً هو أفضل من قانونهم ، وديناً هو أحسن من نُظمهم ، وأننا نستطيع أن نأخذ القانون المدني والجزائي من ديننا وفقهنا ، وأن نحكم في محاكمنا بما أنزل ربنا ، وأن من العار علينا أن نفتقر إلى قوانين عدونا ... وما قوانينه ؟ إن كانت من فكره فلنا أفكار ، وإن كانت من تجاربه فلنا تجارب ، وإن كانت من دينه ... وأنّى ؟ فما في الوجود دين تستمد منه القوانين كلها إلا الإسلام ... !

فهل رأيت غنياً مؤلِّفاً (مليونيراً) أورثه أبوه صناديق الذهب ، ثم يتكاسل عن القيام إليها ، ومعالجة قفلها ، ثم يذهب فـ(يشحد) ذليلا الملاليم والقروش من أكف أعدائه ليتبلغ بها ؟

هذا مثالنا حين نترك ديننا ونأخذ قوانين المستعمرين !

* * *

أين تلك الأقلام تقول للناس : إن الإسلام جاء يكسر الأصنام وأنتم رجعتم تعبدون أصناماً من لحم ودم ، تأكل الخبز والحلوى والذهب وورق النقد (البنكنوت) ... وتأكل كل شيء وتهضمه معدها ... أصناماً تسمونها « زعماء » ! تجدون وتتعبون ليستريحوا هم ، وتَشْقَوْن لينعموا ، وتنخفضون ليرتفعوا ، وتدفعون إليهم ما كسبتموه بأيديكم الخشنة من العمل ، وأنتم تقبّلون أيديهم الناعمة من الكسل ، وتمنحونهم كل نعمة ... ولا يمنحونكم شيئاً ... وإن من بقايا الاستعمار هذه الأحزاب التي لا تتقاتل إلا على أكل الحكم ، وامتصاص دمكم وحكمكم !

٢٦ • ٢٨

وهذا الأسلوب الأحمق الذى يشترط فى معلم المدرسة الابتدائية وكاتب المحكمة الجزئية ، شروطاً فى نفسه ودرسه ، وامتحاناً وتجربة ، ولا يشترط فى الوزير شرطاً ، فكل من أراد الوزارة وسلك سبيلها نالها ، ومن نالها يوماً لصقت به (معاليها) إلى آخر أيامه ...

ستقولون : وما ذا نعمل وهذه سنة المتمدينين فى كل بلاد الله ؟ نعم هى سنة المستعمرين ، ولكن فى بلادهم هم علماء ، فلا تلق وزيراً جاهلا ، وشعباً يقظاً ، وصحافة ساهرة ، وإن فيها انتخابات صحيحة ، وإدراكا شعبياً ، أما الأحزاب ، ففى بلد واحد من بلادنا (كمصر مثلا) أكثر مما فيها كلها ، وهل فى أميركة إلا حزبان : الجمهوريون والديمقراطيون ؟ وهل فى انكلترا إلا ثلاثة : الأحرار والعمال والمحافظون ؟ فكم حزباً فى مصر يا أيها المصريون ؟

فإذا كرهتم الاجتهاد ، وأبيتم إلا أن تكونوا مقلدين ، فقلدوا فى المذهب كله ، ودعوا التلفيق !

***

وأين هذه الأقلام تقول للناس : إن تكنات قصر النيل فى القاهرة ، ومطار المزة فى دمشق ، ومعسكر الحبانية فى العراق ، حصون العدو وقلاع المستعمر ما فى ذلك خلاف ، ولكن للاستعمار قلاعاً أخرى ، إن تكن أخفى فقد تكون أخطر ، وهذه القلاع هى بيوتنا التى انتشر فيها (التحرر ...) فى الشباب والشابات ، و (التجدد ...) فى الصلات بينهما ، فقلل الزواج وزهد فيه الشبان ، وكسّد البنات ، ونشر الأمراض ، وشغل بالهزل عن الجد ، وبالسعى للشهوة عن العمل للوطن ... ولقد قلت إنها أخطر ، لأن تكنات قصر النيل قتلت عشرين مصرياً فى عشرين سنة ، وهذه تقتل كل سنة مليوناً من أهل مصر ، كان يكون منهم العبقرى النابغ ، والقائد البارع ، والأديب الملهم ، والعامل النافع ، ويكون منهم حماة الحمى ، ودرع الوطن ، خسرناهم لانصراف الشباب عن الزواج وزهدهم فيه ، ولولا هذا التحرر ، وهذا التجدد . ولو عادت بنا الأيام كما كنا من خمسين سنة ، إذ لا تلقى شاباً فى العشرين إلا متزوجاً ، ولا فتاة فى الثامنة عشرة إلا ذات بعل ، لزادت مصر مليون إنسان فى كل سنة ، أفرأيتم كيف قتل استعمار البيوت هذا المليون ؟

***

أين تلك الأقلام تفضح أكبر خدعة سربت إلينا ، وترد أفظع كذبة جازت علينا ، وهى دعواهم أن من الخير لنا أن نأخذ المدنية الغربية بكل ما فيها ، وأن كل ما جاء من أوربة فهو خير ورشاد ، وكل ما بقى لدينا من الشرق فهو شر وفساد !

وهذا من أقبح ما خلّفه فينا الاستعمار

فأين تلك الأقلام تدل الناس على مزايانا لنحتفظ بها ، وشرور الغرب لنتجنبها ، وتقيم لهم الميزان العادل ، وتحكم فيهم الحكم السديد ، فنرتفع عن أن نكون قردة مقلدين ، ونرجع عقلاء مميزين ، يعرفون ما يأخذون وما يدعون !

***

وبعد ، فهذى المعركة ، وها هم أولاء المسلمون فى كل بقاع الأرض يكتبون بدمائهم على جبين الزمان أروع قصائد المجد ، وأبلغ آيات البطولة والبذل . ها هم أولاء يردون بأيديهم وبأيمانهم وبحقهم الجيوش التى لم يستطع ردها هتلر بحديده وناره ... لا يرونها أكبر من أن تُغلب ، ولا يرون نفوسهم أصغر من أن تَغلب . ها هى ذى المعجزات تظهر كل يوم على أيدى أتباع محمد : فى ميدان الاسماعيلية ، وفى شوارع الأسكندرية ، وفى بلاد الشام ، وفى مدن فلسطين ، وفى الهند ، وفى جاوة ، وفى إيران ، فأين تلك الأقلام تدوّن خبرها وتخلد ذكرها ؟ !

أين الشعراء وأين ملاحمهم فيها ، وهناك شىء ينطق الجماد بالشعر ؟ أين القصصيون وأين ما وضعوا فيها من القصص ، وهناك قد جلس الزمان يقص من أفعال هذا الشعب أعجب الأقاصيص؟ أين من فى نفوسهم قرائح ، أفلا تفيض اليوم بالبينات هذى القرائح ؟ أين من بين أصابعهم أقلام ... ألا تلتهب اليوم بالحماس هذى الأقلام ؟ !

أين كتاب العربية وشعراؤها وبلغاؤها ؟ !

يا خجلتاه غداً من كتاب التاريخ إذا جاءوا يترجمون لأديب فيقولون : لقد رأى أعظم بطولة بدت من بشر ، وشاهد أجل الأحداث التى رآها الناس ، ثم لم يكتب فيها حرفاً ... لقد شغلته عنها شواغل الأيام ، ومباهج الأحلام ، وملذات الغرام !

(دمشق) علي الطنطاوى